

الأمير شكيب أرسلان وحركة الإصلاح

للأستاذ رفائيل بطي

—♦♦♦♦—

فقد العرب والمسلمون في هذه الأيام شخصية متوهجة جبارة من الشخصيات التي عرفها عصر النهضة الحديثة عند العرب ، قامت بنصيبها من العمل الكبير في نواحي التحرير السياسي ، أو إيقاف الرقود ، وبثت الهمم في النفوس ، أو إبراز عبقرية هذه الأمة في العلوم والآداب والفنون ، بحيث انبثق من هذه المساعي المشتركة والتواصلية فجر الانبعاث الذي ينير لنا طريق المستقبل للناطقين بالضاد .

ومما يؤسف له أن هذا الطراز من رجال العلم والعمل قد قل في العهد الأخير فصرنا ككلا قعدنا واحداً منهم لا نجد من يشغل مكانه أو يسد الفراغ الذي أحدثه قعدانه . ولا سيما هؤلاء النوابغ الذين دفعتهم علومهم وأسفتهم مواهبهم فجمعوا إلى التبحر في اللغة والتمكن من أسرار البيان فحولة في النظم والنثر ، ومعرفة واسعة بما يتصل بقومهم وعشائرهم ودينهم من تاريخ ، وخبرة بشؤونهم العامة في السياسة والاجتماع والاقتصاد ، يتوج كل هذه القابليات حماسة في الكتابة والتأليف ، حيا بأن يشارك القراء الكاتب أو الباحث في صنوف المعارف التي تفيض بها صدورهم . ولعل فقيد الرواية والإسلام الأمير شكيب أرسلان خير مثال لهذه الطبقة من أعلام اليقظة .

تعددت مجالى النشاط الذي أخذ به أمير البيان لتتوزع الأذهان ، وبمت الأبحاث الخالية ، وتوجيه الأفكار نحو طرق النهوض والإصلاح ، فقد عني في أول نشأته باللغة والأدب فنشر (الدررة التيمية) لابن المقفع من أول عهد شدا فيه الأدب قبل نحو خمسين سنة . ثم عالج الشعر فنظم في أبوابه المنوعة وجرت له مساجلات ومراجعات في الصيد مع بعض شعراء جيله ، منهم محمود ساي باشا البارودي ، الذي انبغد له لواء الزعامة في تجديد ديباجة الشعر العربي البليغ بعد أن أخلقت وعنى عليها الزمن

بالزكاكة والفنائة . ومع أن الأمير لم يتفرغ للنظم لتوزع قريحته في أمور ومسائل متعددة بحيث كان مصليا في حلبة الشعر ، فإن ما خلفه من القصائد الحسان يعبر عن سليقة خصبة ، وطبع سليم مؤات لجيد المنظوم .

واستحكام أوامر المودة بين أمير البيان وأمير الشعراء ، مما سجله قلم الكاتب العظيم في كتابه : (شوق أو صداقة أربعين عاما) يدل على تجاوب روحى بين هذين العلمين النيرين .

ولما اشتد ساعد شكيب ونضج فكره ، دفعه حب الاستطلاع وروح الفيرة المتقد في ذهنه ، إلى الاتصال بالصفوة المختارة من رواد النهضة والإصلاح ، ولا سيما السيد جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده ، والشيخ طاهر الجزائري ، فاقتبس من أنوارهم ، وتنف من مبتكراتهم ، وتطلع إلى سمة آفاقهم ، ما أنشأه هذه النشأة الحافلة فظل حياته مهموما بدراسة علل تأخر العرب والمسلمين ، وسر تقدمهم في المعصر الحوالى ، ومسائل إنهابهم من كيوتهم . وكم جرى قلبه بمقالات وبحوث ، ووعت تواليغه من آراء وخطط تجرى في هذه المسالك الرشيدة ، والتابع لسيرة الرجل يجد أنه لم يقصر همه على الكتابة والتأليف في السعى مع الساعين لخلق النهضة الجديدة ، إنما خاض غمار مداوات مع رجال الدول والممالك ، واتصل بهيئات وجماعات مختلفة الأجناس والنمازج جرياً وراء هذا الهدف القومى السامى .

وقد كان الأمير حريصاً على المكاتب طويل النفس في الرسالة بمدته وروحه الخائر المائق بأهداب المجد ، بالجلد والواظبة على هذا الجهد ، فلا يقف عند الكتابة ، والتصنيف في الموضوعات التي يهواها .

وأمر واحد لم يشتهر به شكيب أرسلان هو الخطابة ، فلم يؤثر عنه مواقف خطابية ذات خطر ، ولعل لانقضاء أمد طويل عليه يطوف في البلدان ، ويتنقل في المهاجر ، حاملا رسالة البعث العربي الإسلامى وفي قلبه إيمان راسخ ، وفي يده قلم عسال ، مما احتسبهما لخدمة بنى أمه خدمة نصوحاً ، جملة أن يبقى بيدياً عن الناير .

والغزة التي اشتهر بها الفقيد الجليل وستخلد آثاره على وجه الزمن هذه الإحاطة المدهشة بأحوال العرب وشؤون الضالين

كتبها المصلح الإسلامي جواباً على اقتراح من الشيخ محمد بسيوني عمران إمام مهراجا جزيرة سمبوس برنيو (جاوه) ، بأن يكتب لمجلة (النار) في أسباب ضعف المسلمين في هذا العصر وأسباب قوة الإفرنج واليابان وعزتهم بالملك والسيادة والقوة والثروة ، فكتب شكيب رأيه ، وطبع في كتاب مرتين بعد أن أذاعته المجلة الشهيرة .

يمتدح الأمير الكاتب في بحثه التحليلي هذا أن عز المسلمين قام أول الأمر بالتمسك بأهداب الإسلام الصحيح ، والاهتداء بهدى القرآن الكريم ، فلما فقد العرب والمسلمون هذه الحماسة وأحرفوا عن التعاليم القويمة ضعفوا وهانوا ، فلم يبق لهم اليوم سخاء الإفرنج في المشروعات العامة ، والفائدة في القود عن حياضهم ببذل الدم والمال ، وإن من أول أسباب تهقرم في المصور التأخرة فقدانهم كل ثقة بأنفسهم رغمًا عن مقدرتهم على العمل ، واشتد على هذه القدرة على العمل بمشروع إنشاء خط الحجاز الحديدي ونبوغ طلعت حرب باشا في تشييد بنك مصر بالأخذ بمصانمه ومعاله الناجحة .

والسيد الاسلامي يؤمن بأن العلم كقيل بيعت الأمة ، العلم القائم على ركنين : العلم الطبيعي وعلم الدين . وعحصل نظريته في نهضة الشرق العربي والأمم الإسلامية ، أن الأمة لا يتم لها النهوض والغلبة إلا بالتضحية أو الجهاد بالمال والنفس ، فإذا تعلمت هذا العلم وعملت به دانت لها سائر العلوم والمعارف ، وإن المظلمين بالإصلاح غير محتاجين إلى أن يكونوا من كبار رجال العلوم والفنون بل يكفي إذا أوتوا العقل السليم والإرادة النافذة ، والتوجه نحو الأعمال ، لا الاكتفاء بالتمنى والآمال .

وبين ثنايا الكتاب لشواهد وفراند عن أحوال الناطقين بالضاد وأتباع محمد بالقياس إلى أمم أوروبا الناهضة ما يقع القارىء ويورى زناد الفكر عند من يطعم فيدرك فيتأثر . وفق الله الأمة ، لتعمل بإرشاد رجالها المصلحين ، فتفوز وتسمد .

رفائيل بطبي

تحت كل كوكب ، ومن شواهد هذه التخصيصه تمليقاته على كتاب : (حاضر العالم الإسلامي) لسوتو دارد الأمريكى ، فإن حواشيه وشروحه والفوائد التي علقها على متن مترجه الأستاذ عجاج نويهض للكتاب تستوعب مجلدين كبيرين من كتب اليوم وفيها من صفة ديار العرب والمسلمين وأوضاع أهلها ما قلما تثر عليه في مظنة أخرى . وفي هذا السفر صفحات لامة كتبها علامتنا في الترجمة لجماعة من زعماء الشرق عرفهم وخبرهم بنفسه ما يكشف عن مغاليق حياتهم ووجود مفتاح شخصيتهم ، كما شحن الكتاب بذكريات له عن أطوار في سياسة الشرفيين ، ووثبات التحرر والانتقال في ربوعهم .

ومما ألح في هوايته في سنيه الأخيرة وقد سانه إليه شفقه بحب قوميته وإعجاب به بمحضارة أمته في الأعوام المطوية (تاريخ الأندلس) بعد أن خلبت ليه آثارها الباقية في بلاد المجد المفقود عندما وقف على مشاهدتها فانصرف إلى تأليف كتابه النفيس : (الحلل السندسية) الذي طبع منه بضعة أجزاء ولما يتمه .

وشاء أن يسجل رحاته إلى البلاد المقدسة في رسالة ممتدة هي (الارتسامات اللطاف) . وحفزه وفاؤه لإخوانه وبره بأصدقائه إلى وضع كتاب : (السيد رشيد رضا أو إياه أربعين عاما) . تقف في تضاعيفه على مراحل فكرة الجامعة الإسلامية والثورة العربية ، وكثير من مناورات دول أوروبا والأعياب الإستعمار في هذه الرقعة من الشرق .

إن مخلفات الأمير شكيب وتصانيفه الخالدة كثيرة ، لا تستوعبها هذه الكلمة ، فحسبى أنني أشرت إلى بعضها ، وعندى أن من واجب أصحاب المروءة ، وأعوان الفضل ، والقديرين للرجال أن تتألف منهم جماعة (لتخليد ذكرى أمير البيان) وأول عمل تتوجه إليه ، لإشادة بناء هذا التخليد البحث عن كتاباته ودراساته ورسائله التي لما تطبع ، فتطلبها في كتب يتيسر اقتناؤها لإحياء لذكراه ، وإتماماً لرسالته وتميزاً للفكرة العليا التي اهتدى بها الراحل المهام في جهاده .

ومن رسائله الطريفة التي تحمل فكره الإصلاحية ما نشر بعنوان (لماذا تأخر المسلمون ؟ ولماذا تقدم غيرهم ؟) وهي فصول